المُبادَراتُ المسيحيَّةُ

المبادرات المسيحية في مواجهة التحديات

فيكتور مكاري(*)

تفاعلَ الملتقى من قبلُ في مجالِ المواطنةِ، كما يواصلُ التفاعلَ مع عددٍ ليسَ بقليلٍ من المؤسساتِ والمنظماتِ الصديقةِ التي تُشاركُ اهتماماتِنا بهذا الموضوعِ، ومِن بين هذه المنظَّماتِ الأزهرُ الشريفُ وغيرُه من المنظَّماتِ المدعوَّةِ بهذا المؤتمرِ، وكم نُشيدُ بما أفرزَته مثلُ هذه اللِّقاءاتِ من بياناتٍ رشيدةٍ؛ لا بُدَّ وأن يكونَ لها الأثرُ العميقُ في توعيةِ أبناءِ شعوبِ وطنِنا العربيِّ، كما قُمنا -بدَورِنا كأكاديميينَ مسيحيينَ- بفحصِ أوضاعِ بلادِنا، ودرسَنا موقعَنا منها كمسيحيينَ، وموقعَ مُواطنينَ آخَرينَ من الأقليَّاتِ الدِّينيَّةِ لا من حيثُ كنَّا كأقليةٍ عدَديةٍ، وليسَ من قبيلِ الخوفِ أو ندبِ الحظِّ أو الرِّثاءِ بالذَّاتِ، بل مِن منظارِ إشفاقِنا على أمَّتِنا وأوطانِنا، ومِن واقعِ إيمانِنا بأن تسمو مجتمعاتُنا إلى الحياةِ الفضلى لجميعِ مواطِنِيها؛ لكي يتمتَّعَ كلُّ فردٍ بكرامتِه الإنسانيَّةِ التي كرَّمَ اللهُ بها جميعَ بَني آدمَ، ولكي يسكُنَ الكلُّ مطمئنينَ مِن جَودةِ العَيشِ الآمِنِ، وهذانِ -أي كرامةُ الإنسانِ وجودةُ العَيشِ- هما ما يَغلبُ أن تفتقدَه شعوبُنا بغضِّ النظرِ عن انتمائِها الدينيِّ أو المذهبيِّ أو العِرقيِّ.

لقد تفاعلَ هذا الهمُّ الإيمانيُّ، والذي يتقاطعُ في الواقعِ مع همومِ المسلمينَ إلى البحثِ والبتِّ في شئونِ أُمَّتِنا بالتَّشاورِ مع إخوتِنا وأخواتِنا من المسلمينَ مِن

خلالِ المؤتمراتِ والنَّدواتِ وورشاتِ العَملِ التي عَقَدنَاها منذ عام ٢٠٠٨م، أي قبلَ نُشوبِ ما يُسمَّىٰ بالرَّبيعِ العربيِّ، مِن خلالِ بُحوثٍ ودراساتٍ ووثائقَ وبياناتٍ أصدَرتها مؤسَّساتٌ رفيعةُ المقامِ مثل الأزهرِ الشريفِ، ومبادرةِ أهلِ البيتِ، ورسالةِ «كلمة سواء» الدَّعويَّةِ، والأممِ المتَّحِدةِ.

تأمَّلنا في الواقعِ الذي تعيشُهُ الأمَّةُ من تدَهورٍ كان من شأنِه أن أخذت مجتمعاتُنا في التَّحلُّلِ والتَّهتُّكِ، وفي ما أصابها باسمِ الدينِ من أعمالٍ شيطانيَّةٍ وشرورٍ بعيدةٍ عن الدينِ، منها: القتلُ والتَّخريبُ والتَّرويعُ للآمنينَ، وتعريضُ الأنفسِ والأعراضِ والأموالِ للخطرِ، وانتهاكُ المقدَّساتِ، واستهدافُ الأوطانِ بالتقسيمِ وبمحاولاتِ تفكيكِ أوصالِها وتفتيتِ أنسجَتِها، وكلُّ هذه تتعارضُ مع صحيحِ الدِّينِ؛ فهل وصلت بشريتُنا إلىٰ هذا الحدِّ من التطرُّفِ والتزمُّتِ والتعصُّبِ المضادِّ بحيثُ كادَ الدينُ نفسُه يصبحُ لا قيِّمًا بل صنمًا.

آلَت أبحاثُنا إلىٰ التَّعرُّفِ علىٰ (١٠) قَضَايا محوريةٍ مَصيريَّةٍ تُشكِّلُ تحدياتٍ مُلحَّةً تواجهُ شَرقَنا الأوسَط، هي شأنٌ عامٌّ، وشأنٌ إنسانيٌّ بامتيازٍ، فنحنُ -المسيحيين- نسألُ أنفسَنا ما دخلُ اللاهوتِ المسيحيِّ في هذا الشأنِ؟ وما دورُنا -كمسيحيين مفكرين- في إعادةِ بناءِ مجتمعاتِنا؛ بحيثُ تستعيدُ لكلِّ مواطِنيها كرامَتَهم الإنسانيَّةَ وجودةَ العَيشِ فيه؟

إنَّنا كمسيحيين- نرفضُ أن نكونَ جزءًا من المشكلةِ إذا نحنُ تقوقَعنا، بل جزءًا من الحلِّ، وذلك بإيمانٍ حيٍّ فاعلٍ لنَصِلَ مع أقرانِنا إلى رؤيةٍ موحَّدةٍ تُعينُنا على الخروجِ من المِحنةِ.

من خلالِ دراساتِنا حَصَرنَا الفِكرةَ في هذه التحدِّياتِ العَشرةِ التي تُشكِّلُ قضايا العَصرِ والساعةِ، والتي عُنيَت بها ووثَّقتها أبحاثٌ مستفيضةٌ، إنها تحدِّياتٌ جسيمةٌ تفرضُ الدأَبَ على التَّصدِّي لها دونَ كَللٍ أو مَللٍ، كما أنَّها بحاجةٍ إلى مشاركةِ الإيمانِ الواعي الفاعلِ.

وأَسرُدُ هذه القضايا العشرَ بإيجازٍ:

* الدين والدولة:

ليست العلاقةُ بينهما جامدةً بل دِيناميكيَّةً ستَبقى في حِراكٍ دائمٍ، وبالتَّالي لا يوجدُ جوابٌ أبديٌّ ولا توجدُ معادلةٌ سِحريَّةٌ ثابتةٌ؛ بل توجدُ مساهماتٌ وتفاعلاتٌ، وليست العلاقةُ الصحيحةُ بين الدينِ والدولةِ هي الاستغناءَ عن الدينِ؛ لأن جودةَ الحياةِ وكرامةَ الإنسانِ وسعادَته هي محورُ الدينِ وقِوامُ الدولةِ، فهل من الممكنِ تفعيلُه للمبادئ والقيمِ المشتركةِ بين الأديانِ لكي يكونَ للإنسانِ -الشرق أوسطي- حياةٌ أفضلُ؟

* الدساتير وحكم القانون:

ثمة لبسٌ وخلطٌ بين الشرائعِ البشريةِ من جهةٍ، والشرعِ الدينيِّ من جهةٍ أخرى، فالأديانُ لا يُمكنُ إلا أن تكونَ مصادرَ قِيَميَّةً للتَّشريعِ، أما القوانينُ الوضعيةُ فلا

يمكنُ إلا أن تصدرَ عن سُلطةٍ تشريعيَّةٍ ناتجةٍ عن انتخاباتٍ حُرَّةٍ ونزيهةٍ؛ حيثُ يسوقُ القانونَ قضاءٌ مستقلٌّ ويُسهِّلُ تطبيقَه على المصالحِ الانتقائيةِ والسُّلوكياتِ المغرضةِ، فاللهُ سيدُ الكَونِ والتاريخِ وضمائرِ الأفراد، أما الحكمُ بين الناسِ -مع تنوعه في الوطنِ الواحِدِ- فهو في أمسِّ الحاجةِ للقانون، كما أن دولةَ القانونِ أساسيةٌ لمكافحةِ الفسادِ المتفشي في الحكمِ والإدارةِ والاقتصادِ.

* أمنُ النظامِ وأمنُ المواطنِ:

ركَّزت معظمُ الدولِ في المنطقةِ في العقودِ الماضيةِ جُلَّ اهتمامِها وشغفِها على أمنِ الدولة؛ الذي باتَ مرادِفًا لأمنِ النظامِ على حسابِ التنميةِ البشريةِ والاجتماعيةِ والاقتصاديةِ، وكشفَ الربيعُ العربيُّ عَوارَ الأنظمةِ الحاكمةِ، والتي قادتنا إلى وضعٍ لم يعد فيه أمنٌ للدولةِ ولا للمواطنِ.

لذا؛ كانت الحاجةُ أن يُعطى المجالُ لإطلاقِ قدراتِه العلميةِ عبرَ إنشاءِ أجهزةٍ علميةٍ نزيهةٍ قادرةٍ على صيانةِ وحدةِ البلادِ.

* تنميةُ الموارِدِ البشريةِ والطبيعيةِ:

الشرقُ الأوسطُ منطقةٌ حباهَا اللهُ بمواردَ طبيعيَّةٍ مميزةٍ، وثراءٍ بشريٍّ وثقافيٍّ، وإثنيَّةٍ لا مثيلَ له، إنها حقًّا منطقةٌ غنيةٌ بالمواردِ الطبيعية كالبترولِ والمعادنِ والغازِ والشمسِ والريحِ والأنهارِ والأراضي الخصبةِ والآثارِ السياحيةِ والموقعِ الاستراتيجي، هذه كلُّها تشهدُ بماضٍ غنيٍّ ومستقبلٍ واعدٍ -إن شاء اللهَّ- لو أديرت بالحكمةِ واستُغِلت المهارات.

* المرأةُ.

* شبابُ الشرقِ الأوسطِ:

وهي مهمةٌ؛ لأنَّ أكثرَ من نصفِ تَعدادِنا دون سن ٢٥، وهذا يمثلُ طاقةً بشريةً هائلةً لكنَّها تضيعُ في غيبيَّاتٍ وتخيُّلِ العالَمِ الآخرِ لا يستطيعون الوصول إليه.

* كرامة الإنسان.

* الروحانية والثقافة الإنسانية:

مَن يدرس أوضاعَ الشرقِ الأوسطِ يجدُ أنه بالرَّغمِ من تكاثرِ أعدادِ المتدينينَ إلا أنَّنا أصبحنا نفتقدُ لروحانيَّةٍ إنسانيَّةٍ عميقةٍ.

* التفكيرُ في زمنِ التكفير:

ما زَالت مُعظمُ مجتمعاتِنا العربيَّةِ مليئةً بالغيبيَّاتِ التي تُخلَطُ بالدينِ؛ حيثُ نرىٰ اللهَّ كشماعةٍ تَحلُّ محلَّ العقلِ والإرادةِ، وتفتقدُ شعوبُنا إلىٰ تشخيصٍ علميٍّ، كما تفتقدُ مجتمعاتُنا إلىٰ زخمٍ كافٍ من أصواتِ الرموزِ الدينيةِ لمكافحةِ التَّطرُّفِ المستفحِلِ.

* رؤيةٌ موحدةٌ:

تمرُّ المنطقةُ العربيةُ بحالةٍ من انسدادِ الأفقِ مما يقودُ البعضَ إلىٰ هجرةٍ خارجيةٍ، كما تفتقدُ إلىٰ الأملِ المقترنِ بالجُهدِ والعملِ ورؤيةٍ مشترَكةٍ لا تُفرِّقُ بل تجمعُ، وتفتحُ أبوابَ الفكرِ علىٰ مصاريعِها.

بعد التعرُّفِ على هذه التحدِّياتِ العشرةِ لا نتوقفُ عند التشخيصِ، بل من صميمِ إيمانِنا؛ يجب علينا الالتزامُ مع شركاءِ الوطنِ، إنَّنا نؤمنُ باللهَّ الواحدِ الذي خلقَ الكونَ وكرَّمَ الإنسانَ، بل جعلَه خليفةً له على الأرضِ وعهِدَ إليه صيانتَها؛ لذلك نلتزمُ بالحفاظِ على الخليقةِ وبإدارةِ مواردِها وبصونِ كرامةِ الإنسانِ؛ أيًّا كان جنسُه أو عرقُه أو دينُه أو مذهبُه، إنَّنا نؤمنُ باللهَّ الذي خلقَ فعدَّدَ أجناسَ البشرِ ولغاتِهم ونغمات أصواتهم، فلنلتزمُ بالعملِ على وحدةِ أوطانِنا فيما نَحتفي بتنوعِها الذي يُغني ويراعِي تكاملَها، هذا هو مفهومُنا للإيمانِ الواعي والفاعلِ، شريطةَ أن تكونَ مشاركتُنا مشاركةَ فكرٍ وعزمٍ وعملٍ مع غيرِنا من المؤمنين باللهَّ الواحدِ والوطنِ الواحدِ.

ختامًا؛ ندعو اللهَّ عز وجل أن تكونَ جميعُ أقوالِنا وتصريحاتِنا وبياناتِنا شاهدةً لنا لا علينا، كما نسأله -تعالى- أن يدعمَ عزيمتَنا ويؤيدَ مسارنَا؛ لكي تصبحَ أداة بناءٍ؛ «لأنه إن لم يبن الربُّ البيت فباطلًا يتعبُ البنَّاءون»، أغاث اللهَّ عبادَه وأجابَ دعاءهم.. إن اللهَّ على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

***